

الدلالة النفسية

للأساليب والاتجاهات الجديدة

لـ «ستار سير قطب»

إن الخلاف في حقيقته ليس خلافاً لنظرياً أو أدبياً كما يحسب الكثيرون ، وإنما هو اختلاف عقليتين ، تكاد أن لا تتفاهان على أساس في النظرة إلى اللغة والتعبير ، بل في النظر إلى الحياة نفسها جللتها وتفصيلها .

« فالمدرسة القديمة ضيقة الإحساس ، بدائية الدور ، قليلة التخيير النفسية ، والتجارب الوجدانية ، بمقدار انفساح الإحساس في المدرسة الحديثة ، ووفرة التخيير النفسية لديها ، والتجارب الوجدانية .

« ولهذا تضيق الأولى بالآخرة ، لأنها تطالعها بالوان من الإحساس لا عهد لها بها ، بعد ما ألفت ألا تنسج إلا للون واحد من ألوان العواطف والحوالج ، تعرفه صورة واحدة ذات معالم وحدود ، فتحسب أن كل ما في هذه الأحاسيس الجديدة إنما هو اختلاف في التعبير ، والواقع أنه اختلاف في الحالات النفسية التي استدعت هذا التعبير . »

سيد قطب

جاءت هذه الفقرات في كلمتي الأولى بالمعبد الماضي من « صحيفة دارالعلوم ،

تحت عنوان « الدلالة النفسية للألفاظ والتراكيب العربية ،

وقد كان بجئي إذ ذاك مقصوراً على ما تضمنه العنوان ، ولكنني أردت

فقط أن أشير فيه إلى أن هناك خلافاً أساسياً بين المدرستين ، لا يقف عند حدود

الألفاظ والتعبيرات ، وأن هذه إنما اختلفت تبعاً لذلك .

وأحسبني أفلحت في كلمتي الأولى ، في بيان هذا المعنى الأخير ، وأصبح

مفهوماً أن الأسلوب أو طريقة الأداء إنما هي اتجاه عقلي ونفسي قبل أن يبرز

الفاظاً وتراكيب ، وأن التجديد متى شمل « المعاني ، والانجاء الفكري ، فلا بد

أن يشمل ، الأسلوب ، أو طريقة الأداء ، لأنه لا انفكاك بينهما .
ولقد قرأت أخيراً مقالا في ، البلاغ ، بإمضاء ، عجوز ، يتهم فيه بالمجدين
ويعجب كيف يتناول التجديد التراكيب والأساليب ، إذا صح أنه يتناول
المعاني والأفكار ، فعجبت أن تكون هذه مشكلة تستحق البحث ، وتدعو للجدل
وليس منشأ مثل هذا الفهم إلا إغفال الدراسات النفسية ، عند البحث
في اللغة أو الأدب ، ولو عرفنا في بساطة ساذجة ، أن التعبير ، لا يكون إلا
عن ، انفعال ، ، وأن الانفعال خاضع للبحوث النفسية ، كما قلت في كلمتي
السابقة ، لعرفنا أن الاتجاه الذهني هو الذي يحدد الأسلوب ، وأن الحكم على
صحة أسلوب ما يستدعي البحث في الحالة النفسية التي يصورها ، وأعني بالصحة
صدق تصويره لهذه الحالة . وإلا فما يختلف اثنان في وجوب الصحة اللغوية
في القديم والحديث على السواء .

ولقد فرغت في البحث الماضي ، من عرض بعض التعبيرات التي تكثر في المدرسة
الحديثة من ذكرها ، وشرحت الحالات النفسية التي تستدعيها ، وما عنت بذلك
أن أستقصى تلك التعبيرات ، وهذه الحالات ، إنما أردت أن أفصح الأعين على أفق
جديد من آفاق النقد والنظر إلى الآثار الأدبية الحديثة ، في رحابة ودقة وإمعان ،
وأن أقرن البحث النفسي إلى البحث الأدبي واللغوي ؛ ليعلم أنهما متلازمان في
النقد الصحيح ، وأن مهمة الناقد ليست من السهولة بحيث يستطيعها كل من درس
دراسة أدبية بحتة ، ما لم يكن له من البصر الطبيعي بالحالات النفسية ، ومن سعة
الإدراك للوجدانات المختلفة ، ما يضمنه إلى هذه الدراسة ، ويستخدمه في النقد
وإصدار الأحكام .

وأحسب أن هذه مسألة لا يستكثر فيها الحديث ولا يستطال ، فأننا أزعج
أنها جديدة على النقد الأدبي في اللغة العربية ، وأنها إذا كانت قد نالت بعض الالتفات
في بعض الأحيان ، عند بعض النقاد القدماء والمحدثين في هذه اللغة ، فإنها لم
تأخذ بعد شكل النظريات المسلم بها ، والقاعدة التي يقاس عليها .

(٧ صحيفة دار العلوم)

فإذا عدت إليها اليوم في مقدمة بحثي ، بعد ما قررتها في البحث الأول ، فإنما ذلك بسبب ما قدمت .

كذلك أود أن أعود لمسألة اختلاف الأساليب ، تبعاً لاختلاف العقليات ، بله اختلاف الموضوعات (فهذا مسلم به تقريباً) ، لأقرر أنه ليس من اللازم أن تجرى أساليبنا نحن في مصر ، وفي هذا العصر ، على الأساليب العربية المعروفة ، في بطن الجزيرة ، والبلاد العربية الأصيلة والدخيلة ، وهذا كله مع احتفاظنا بالنطق بهذه اللغة ، ومحافظتنا على صحة إعرابها وسلامة ألفاظها .

وأنه لن يستساغ منا اليوم أن نجري في تعبيرنا ، أى في ترتيب الألفاظ ، وتنسيق التراكيب ، على نحو ما كان متبعاً في كثير من عصور هذه اللغة ، ولو فعلنا لبدا أسلوبنا مغايراً لحياتنا وطريقة تفكيرنا ، واتضحت الهوة بين عقلنا ونطقنا .

وليس في نيتي أن أفاضل بين الأساليب ، لأقررأيها أبلغ من الوجهة الأدبية البحتة ، فما أعرف أسلوباً أبلغ إلا مقيساً إلى الحالة النفسية التي يعبر عنها ، ومقدار إبانته عن هذه الحالة في صورة جميلة ، متناسقة مع العقلية العامة ، التي أنشأت هذه الحالة .

فقد يكون بعض الكتاب ، وبعض الشعراء في العصر العباسي مثلاً ، أجود منا نحن اليوم أسلوباً ، ولكنني — كأديب — لا أرتضى كثيراً من أساليبهم هذه ، لا لأنني قد آتى أجود منها ، بل لأنها لا تناسب طريقي أنا الخاصة في الأداء ، وطريقة العصر الذي أعيش فيه ، والأمة التي أنجبتني .

وإنني لا كون بليغاً أكثر البلاغة ، حين أعبر بطريقي ، وطريقة عصرى وأمتي ، ولو لم أصل إلى درجة البلاغة في العصر العباسي .

وهذا يعادل بالضبط ، أن ألبس كساء فصل على قدى من القطن ، فيكون أجمل وأنسب من كساء آخر فصل على قد غيرى ، من أجود النسيج .

ولست أعني أن كل أسلوب قديم لا يناسبنا منه شيء ، ولكنني أبغى فقط أن

أقرر قبول التحوير والتعديل والابتداع في هذه الأساليب ، حتى تصبح مناسبة لعصرنا الجديد .

وبعد فخلق بكل ما مر حتى هذه السطور ، أن يكون ملحقا بالبحث الماضي ، فهو بعض ما يقال عن الألفاظ وعن التعبيرات ، أو عن الأسلوب ، بصفة عامة . وقد بقي الحديث عن الاختلاف النفسى والعقلى بين المدرستين ، أو اختلاف نظرتيهما للحياة والحالات النفسية فيها .

ويحسن أن أشير هنا إلى أن المعنى بالمدرسة القديمة ليس الأدب القديم ، وكذلك ليس المعنى بالمدرسة الحديثة هو الأدب الحديث . أعنى أنه ليس لكلتا المدرستين حدود زمنية ، فبعض الشعراء الذين عاشوا في العصر العباسى كآبى نواس وابن الرومى والمتنبى نعتبرهم من المدرسة الجديدة ، وبعض الشعراء الذين يعيشون بين ظهرانينا الآن نعتبرهم من المدرسة القديمة . والفروق بينهما فروق في الإحساس والطريقة .

المدرسة القديمة فقيرة في الحالات النفسية ، تقرب كثيرا من دائرة البداوة والطفولة ، والأحاسيس عندها ساذجة أولية ، لها ألوان قليلة محدودة ، وشرح مثل واحد قد يعطى صورة لغيره .

الحب مثلا عندها — وهو إحدى العواطف الكبرى في الحياة — حالة واحدة ، أو حالات شبيهة بالحالة الواحدة ، فهو شوق ولهفة ، وجوى وشكوى ثم تدلل وأسى ، ورقة وخنين .

أو كما يقول أحد الأساتذة عن المتنبي شارحا أثر الحب :

« فلست ترى في أضعاف نسيبه آثار نفس ذللها الهوى ، وأسقمها الحب ، فلا كبد حرى ، ولا قلب مقروح ،

هكذا . مادام هناك « حب » فلا بد أن تكون « ذلة وسقم » ، وكبد حرى ، وقلب مقروح » .

وهذه هي الصورة التقليدية للحب ، عند النقاد العرب ، ولو أن الكثيرين من الناطقين بالعربية في أيام النهضة استطاعوا أن يتخلصوا من هذا الضيق النفسى ، وأن يفهموا الحب فهما أوسع إلى حد ما .

فلا يجوز أن يكون فى الحب قناعة واستكفاء مثلا كما يشبع النهم من أجود الثمار ويستكفى فى لحظة ، وإن كان هذا لا يمنع من تجديد النهم . ولا يجوز أن يكون هناك سلو ولا صدود من المحب لسبب من الأسباب ، ولا يجوز أن تكون هناك عزة وكبرياء ، ثم لا يجوز أن يكون هناك عنف وقسوة وصخب وتدمير !!! وبطبيعة الحال لا يمكن أن تكون هناك لطفة وعنف مثلا ، ولا حب وبغض يتمشيان جنبا إلى جنب فى نفس واحدة ! ولا حالتان مزدوجتان أو عدة حالات بحال من الأحوال ؟

ولم هذا ، والحب عاطفة إنسانية ، تكون هادئة وناثرة ، رقيقة وعنيفة ، مقبلة ومدبرة ، فائضة بالحيوية ومنحسرة الفيض منظوية على نفسها ، متفتحة ومغلقة ، صاعدة وهابطة . حلقة فى سماء الخيال ومكبة فى أرض الواقع ، ملائكية النفحات ، وشيطانية النزوات ... الخ ؟

وتكون هكذا فى النفوس المختلفة ، وفى النفس الواحدة فى الحالات المتباينة ، وبإزاء شخصيات متغايرة ، فى مواقف لا عداد لها .

والحب بعد هذا وذلك . فيض فى نفوس قوية — على نسبة ما من القوة — فيض زائد عن الحاجة ؛ طاقة فائقة عن الضرورة ، تبغى لها متصرفا ومنبثقا ، فكيف يلزمها الضعف ، ويلزمها الغم ، والكبد الحرى ، والقلب المقروح ، ؟ وأين تذهب حالات الرضاء والاكتفاء ، وحالات النهم والالتهام ، وحالات التطلع والاستطلاع ، وحالات التصوف والاستعلاء ، وحالات السخط والغضب ، وحالات العنف والانتقام ... ، وحالات ... مما لا عد له ولا حصر من الحالات النفسية عند المحبين ، بل عند المحب الواحد مع المحبوبات ، بل مع المحبوبة الواحدة فى شتى الانفعالات ؟

كل تعبير جميل عن حالة صادقة من هذه الحالات وسواها مما لا يستطيع حصره ، فهو أدب رفيع ، وشعر فني ، وتراث أدبي ثمين .

وعلى الذين يعيرون هذه الألوان متفرقة أو مجتمعة ، أن يستشعروا ضيق نفوسهم عن استيعابها ، وخرج قلوبهم عن التفتح لها ، وليحاولوا أن يوسعوا حياتهم ، وأن يجعلوا من وجداناتهم ، أذنا موسيقية رفيعة ، تستلذ نغمات الأوركستر ، وتطرب للهرموني ، والانسجام في الموسيقى ، قبل أن تطرب للنغمة الواحدة منفردة ، وعلى لون خاص لا تتعداه .

وإني لأضع أمام القارئ نموذجاً رفيعاً للون من ألوان الغزل ، يمثل رحابة النفس الإنسانية ، وتفتحها لتلقى أطيايف الحب المختلفة في لحظة واحدة ، وهي مع ذلك قطعة واحدة ، تعبر عن حالة نفسية واحدة ، (فالحالات المختلفة يبحث عنها في ديوان كامل) ومع هذا يبدو فيها التفتح والفهم ، والرحابة والشمول .

يومنا^(١)

يومنا عاد فهل تعرفه ؟ شد مارعرعه العام السريع
شد ما غذته في نشأته قبلات تشبع الحب الرضيع
هي تُسمى حين تغذو طفلها وهي تسمى طفلها حين تجيع

سنة كانت ربيعاً كلها بين روض يتغنى ويضوع
زهر ناهيك من زهر فإن أنبت شوكا يكن شوك ربيع

(١) للأستاذ العقاد من ديوان « عابر سبيل »

حبذا الشوك من الحب ولا حبذا من غيره العشب المربع

عَضَّ عَيْنِكَ قَلِيلًا وَاسْتَعَدَّ خطوات العام في الأفق الواسع
 كم ترى من خفقة غنت بها ساعة العمر التي بين الضلوع
 كم ترى من قبلة رنت بها نلکم الساعة ؟ قل لو تستطيع
 كم ترى من نشوة حامت بنا حول عليين والعرش الرفيع
 إن يطل شرح المعاني فاختصر كل ما فرقت في معنى جميع
 هو دحب، فإذا فرقته فهو ماراع قديماً ويروع
 هو حب واحد لكنه شائع كالنور من حيث يشيع
 لم يكرر قط في ترداده كل ترداد له خلق بديع
 فإذا عشت له عشت به في بواكير من العيش البنيع

أين يمضي بك يا يوم السرى وعنان الحب يا يوم مطيع
 طفت ما طفت وسأقتك لنا صحة إن ضاع شيء لا تضيع
 وعلى العهد مدى العمر هنا نحن يا يوم . ومأواك منيع
 أبدأ نلقاك والحب معا هاهنا بين مضي ورجوع

هذا تعبير عن حالة واحدة في لون واحد، من حالات الحب ذي الألوان المتعددة، فأين في ماضي الأدب العربي كله تجد مثل هذا التعبير، أغنى مثل هذا الإحساس الذي استدعى التعبير ؟

وهذا مظهر من مظاهر التجديد، الذي تدعو إليه المدرسة الحديثة، شاعرة بانفساح الحياة، ورحابة الإحساس، ووفرة الشعور، وهي بهذا تعمق حياتها، وتضاعف الشعور بها، وتجعل من كل ذرة فيها مادة تأمل واسترواح :

ولعلك واجد من أدباء المدرسة القديمة من يفغر فاه عجباً من أن يكون للحب شوك، وأن يكون هذا الشوك مطلوباً كالحب نفسه، يقال له: حبذا، أ. فالمحب في عرفهم يجب أن يكون متطوعاً للصفو والرقّة والليونة، ولا يجوز له أن يرتضى الشوك من الحب فضلاً عن طلبه. فإن ارتضاه فعلى سبيل التضحية والرجاء، لا على سبيل الطلب والاستحسان.

ولكن الشاعر هنا حي، فائض بالحيوية، متبع لمظاهر الحيوية في الحب والرييح، فالشوك عنده مطلوب كالزهر سواء بسواء، لأن كليهما دليل على دفعة الحياة، وفيض النماء، ولأن الشوك أصيل أصالة الوردة نفسها.

ولعل هذه الالتفاتات وحدها كافية لبيان المدرستين من فوارق في فسحة الشعور، واتساع الآفاق، وفي القصيدة غيرها وغيرها للتأمل بعين الناقد البصير، وإحساس الحي الموكل بمظاهر الحياة.

وفي الحديث متسع، ولنا عودة بالشرح والتفصيل.

حلاوان

سبر قطب